

حكمة للأسلاف في فض النزاعات والتعاشيس السلمي



جعفر نصر
(أفريقيا بدأت بلا إرث بلا تاريخ بلا حكام...): مقولة المدخل الأولى لتسبب الرجل الأبيض مجيئه لأفريقيا، والإدعاء لأسباب غزوه أفريقي من أجل تقديم أهلها وزرع الثقافة على أرضهم. وتقف في وجه هذه الإدعاءات- والتي تكشف زيفها في سجلات التاريخ- المعرفة، الثقافة، التعليم والقوانين التي تقوم في المجتمعات الإفريقية منذ مئات السنين، عبر قنوات ممارسة الحياة اليومية، وحركة الإنسان في سياق وجوده.

التي تتم بالتعليم البيئي من خلال الأساطير والأحاديث والحكايات الشعبية، والتعليم الاجتماعي والأخلاقي والسلوكي، قنوات للتواصل بين الأفراد والجماعات، وللتكيف والنزعة إلى الخير والمسؤولية الاجتماعية، والاحترام المتبادل. وتتوارث ثقافة المجتمع الشعبية- في أفريقيا- من جيل إلى آخر أيضاً- في الأمثال والنوادر والحكايات، وألعاب الفئات العمرية التي يضبطها تطبيق قوانينها بجدية وصرامة منذ الطفولة، وفي التعبير الفني وأسلوب الحكى البارع والتعليم الجمالي والمهني والحرفي والإبداعي.

وتمثل حكمة فض النزاعات والاختلاف، من خلال القوانين التي تدير التعاشيس السلمي بين الحكايات، نموذجاً سامياً للدوافع الإنسانية المترامية والمتواضعة على قانون الجماعة، لا الفكرة الأحادية.

بيل كاردين، المفتش الإنجليزي لمركز النوير- جنوب السودان- كتب في كتابه حكاوي كثربري السودانية، السفر القديم الذي نشره مركز عبد الكريم ميرغني، كتب حكاية عن حرب دارت في أرض قبيلة النوير. ومن خلال مفاوضات وتحكيم إبتدريه ونفذه زعماء القبائل ثم فضها. بالمعرفة والحكمة الإلهية، وقوانين التعاشيس السلمي بينهم. وظل قبول الآخر، والعقل المفتوح هو موجه تحقيق الانتصار للتعاشيس والتراضي، وأساس العدالة في الحكم والتحكيم. في أكتوبر من عام ١٩٥١م كنت في (فنجاك) بمديرية أعالي النيل في السودان. وكان موسم الأمطار الذي بدأ في أواخر أبريل يقترب من نهايته وبدأت الطرق تفتح فيما عدا بعض الجسور التي لم تزل مليئة بالمياه بحيث يتعذر استعمالها بواسطة العربات. كان ارتفاع الحشائش يصل إلى حوالي ستة أقدام، ولكنها بدأت تميل إلى الإصفار. وبدأت سنابل الذرة في النضوج ليبدأ الحصاد بعد حين قصير في إحدى الأمسيات، بينما كنت جالساً في الفرندة أقرأ في ضوء مصباح الجاز، جاعني (عُث طَقَّق) رئيس الخدامين الثلاثة الذين كانوا يعملون لدى وأبلغني بان

لواحد منهم بعينه، ذلك أن وجهه كان شاحباً مما يدل على أنه الرجل المطلوب، وأنه من المتوقع أن يموت قبل أن ينبثق الصباح، ما لم يرفع كجور جلد النمر لعنته عنه.

لقد أراد كيك أن أسمع ذلك من الرجل حتى لا يقال فيما بعد أن الاعتراف لم يتم. وهكذا لأبد أن تكون اللعنة قد رفعت عن الرجل لأنه وجد حياً في اليوم التالي، وبلونه الأسود المعتاد، ولم يكن لديه أي ميل للتراجع عن أقواله.

تم استكمال تسوية القضية في اليومين التاليين. وبعد رجوعي للمركز بفترة قصيرة، أثار معي زعماء القبائل ضرورة تحديد عقوبات ثابتة للإقتال بين القبائل. وبالفعل تم وضع قائمة عقوبات متفق عليها لتطبق في أي نزاع عادل يقتل فيه أحد الأشخاص، فأصبحت عقوبة المشاركة في مثل هذا النزاع ستة أشهر سجنًا. ولمن يجرح شخصاً اثنا عشر شهراً سجنًا، لمن يقتل شخصاً أربع سنوات سجنًا وأبلغني كيك والزعماء المحايدين في حضور ٨٥٠ رجلاً،

أنه يجب تطبيق هذه العقوبات عليهم. سألت ما إذا كان أي من أولئك الرجال يشعر بأنه مظلوم ويريد استئناف الحكم. فلم يتقدم منهم أحد. لذا قمت بتدوين هذه النتيجة في سجل المحكمة. ثم قام كيك بشرح ما توصلوا إليه حول الأسباب التي أدت إلى نشوب القتال، أي الجانبين يقع عليه أكثر اللوم. إن كل ما أذكره الآن حول هذه القضية هو أن الجانب الذي أدين قد فرضت عليه غرامة قدرها عدد معين من الماشية، وتم قبول ذلك بإعتباره حكماً عادلاً وسجل ملخص القضية في سجلات المحكمة. دعني أضيف أن مفهوم القتال العادل كان مهماً جداً من وجهة نظر النوير إنه شيء مشرف لأي فرد في القبيلة، ولذلك يجب أن تكون عقوبته خفيفة، ويكفي فقط منع مواصلة ما لا نهاية. أما القتال غير العادل مثل وضع كمين، أو طعن رجل من الخلف فذلك أمر آخر ونادر الحدوث ومن ثم لابد أن تكون عقوبته شديدة.

عندما تم قيد آخر كلمة في السجل كان وقت ما بعد الظهيرة قد انقضى فودعنا بعضنا البعض وتفرق الجميع في اتجاهات مختلفة سلك الزعماء المحايدين وكجور جلد النمر الطريق الذي يؤدي بهم إلى أهلهم. أما الثمانمائة وخمسون رجلاً فقد شكلوا صفين، أحدهما يتكون من ٥٠٠ وآخر من ٣٥٠ رجلاً. وأخذ رجلان من شرطة المركز وشرطة الشرف القبيلة مكانهم في المقدمة، وأربعة آخرون في الوسط والباقيون في المؤخرة، واتجهوا جميعاً إلى فنجاك وهم يتشدون ويغنون. كانت جوقة غنائية ممتازة جهيرة الصوت.

الأول؛ وكم عدد القتلى من الجانبين؟ ومن هو المسئول عن مقتلهم؟ من هم الرجال المسلحون بالرماح من الجانبين، ومن قام بتسليحهم. وكم عدد الرجال الذين اشتركوا في القتال من كل جانب؟ وأخيراً ما هي العقوبة المناسبة لكل من الثمانمائة والخمسين فرداً المتورطين في القتال؟ وما هي العقوبة الجماعية التي يجب توقيعها على القبيلتين بما لا يشجع تكرار حرب من هذا القبيل في المستقبل؟

بينما كان أولئك الزعماء الذين يستحقون كل الإعجاب يقومون بإجراء تحرياتهم. ماذا كنت أفعل وأنا أنتظر النتيجة؟ لم يكن بإمكانني غير التخمين. ويحتمل أنني كنت أطالع بعض الخطابات المكتوبة التي جاءت مع الملفات في ذلك الصندوق الحديدي، ومن المؤكد أنني كنت أقرأ كتاباً من وقت لآخر، وبالتأكيد أيضاً أنني كنت أشاهد تلك الطيور التي تدخل في مدى منظاري القديم من نوع (Zeiss). كانت هذه الطيور بالوانها الزاهية توجد بكميات كبيرة في جزيرة الرزاف أكثر من أي مكان آخر رأيتها في حياتي. كانت هناك طيور الباتلير، ونسور الأسماك، وطيور الكاتب، والحباري، الكركي ذو العرف الذهبي، بالإضافة إلى مجموعة من مختلف الطيور آلات النحل، والرفراف، وكثير غيرها. غير أنه مهما كانت تحركاتي فقد كنت موجوداً باستمرار فيما لو أراد أي فرد من النوير مقابلي، ولابد أن حضوري ووجود الشرطة قد ساعدا على عدم تشجيع أي اشتباك جديد.

ربما كان هو اليوم الثالث الذي علمت فيه من كيك أنهم يواجهون إجابات على جميع أسئلتني باستثناء شرط واحد هام هو أنهم قد تعرفوا على الرجال

أسود فاحماً وجسمه نحيلاً كأداة جمع العشب، وأسنانه قليلة جداً، وكلامه لطيفاً، وكان يرتدي قميصاً ورداء من الكاكي، مع قبعة حكومية مزينة بالبريش، ويلبس في أعلى ذراعه سواراً قوور عرضه بوصتان (كان كل رجل من النوير يحترم نفسه يلبس هذا السوار).

ويحمل غليوباً طوله قدمان، وكريسياً قابلاً للطي مخلعاً، شرح لنا كيك الوضع بأنه وبقية الزعماء المحايدين قد وصلوا في اليوم السابق وأثناء الليل وتمكنوا من فصل الفريقين الخصمين عن بعضهما البعض وأضاف أن عدد المتورطين يبلغ ٨٥٠ رجلاً، ٥٠٠ منهم من قبيلة و ٣٥٠ من قبيلة أخرى، وأنه في المنحدر الذي كنا نقف عليه يوجد ٥٠٠ رجل مسلحين بالرماح وفي المنحدر المقابل يوجد ٣٥٠ رجلاً من القبيلة الأخرى مسلحين بالمثل. وأضاف أن رجال القبائل المحايدة قد دخلوا فيما بين الفريقين، ونصح بان أقوم أنا وفريقي بالانضمام إليهم، ونعسكر تحت الأشجار في بطن الكريسي والطاولة تحت شجرة شوك ضئيلة الظل، وبجانب الطاولة الصندوق المعدني وداخله الملفات والسجلات، والسرير والناموسية تحت شجرة أخرى على بعد بضعة ياردات وحولهما النار والدور والمقاليات والطعام وقرب الماء معلقة على أغصان الأشجار.

جلس قائداً الفصيلين المتحاربين، وكيك وزملاؤه من الزعماء المحايدين وشخصي تحت شجرة، واتفقنا على ما يجب عمله، تقرر أن يبقى كل جانب في مكانه على منحدر الوادي، وعلى الزعماء المحايدين أن يجدوا إجابة على عدد من الأسئلة: ما هي أسباب القتال في المقام

الذي تتم بالتعليم البيئي من خلال الأساطير والأحاديث والحكايات الشعبية، والتعليم الاجتماعي والأخلاقي والسلوكي، قنوات للتواصل بين الأفراد والجماعات، وللتكيف والنزعة إلى الخير والمسؤولية الاجتماعية، والاحترام المتبادل. وتتوارث ثقافة المجتمع الشعبية- في أفريقيا- من جيل إلى آخر أيضاً- في الأمثال والنوادر والحكايات، وألعاب الفئات العمرية التي يضبطها تطبيق قوانينها بجدية وصرامة منذ الطفولة، وفي التعبير الفني وأسلوب الحكى البارع والتعليم الجمالي والمهني والحرفي والإبداعي.

وتمثل حكمة فض النزاعات والاختلاف، من خلال القوانين التي تدير التعاشيس السلمي بين الحكايات، نموذجاً سامياً للدوافع الإنسانية المترامية والمتواضعة على قانون الجماعة، لا الفكرة الأحادية.

بيل كاردين، المفتش الإنجليزي لمركز النوير- جنوب السودان- كتب في كتابه حكاوي كثربري السودانية، السفر القديم الذي نشره مركز عبد الكريم ميرغني، كتب حكاية عن حرب دارت في أرض قبيلة النوير. ومن خلال مفاوضات وتحكيم إبتدريه ونفذه زعماء القبائل ثم فضها. بالمعرفة والحكمة الإلهية، وقوانين التعاشيس السلمي بينهم. وظل قبول الآخر، والعقل المفتوح هو موجه تحقيق الانتصار للتعاشيس والتراضي، وأساس العدالة في الحكم والتحكيم. في أكتوبر من عام ١٩٥١م كنت في (فنجاك) بمديرية أعالي النيل في السودان. وكان موسم الأمطار الذي بدأ في أواخر أبريل يقترب من نهايته وبدأت الطرق تفتح فيما عدا بعض الجسور التي لم تزل مليئة بالمياه بحيث يتعذر استعمالها بواسطة العربات. كان ارتفاع الحشائش يصل إلى حوالي ستة أقدام، ولكنها بدأت تميل إلى الإصفار. وبدأت سنابل الذرة في النضوج ليبدأ الحصاد بعد حين قصير في إحدى الأمسيات، بينما كنت جالساً في الفرندة أقرأ في ضوء مصباح الجاز، جاعني (عُث طَقَّق) رئيس الخدامين الثلاثة الذين كانوا يعملون لدى وأبلغني بان

المفتاح

شعر: فيسوافا شيمورسكا
ترجمة: هاتف الجنابي

كان ثمة مفتاح؛
ولا مفتاح الآن.
كيف نلج الدار؟
ربما سيجد أحدهم؛
المفتاح المفقود.
ويتطلع إليه - ولكن
ما الفائدة؟
وهو يمشي يرميه إلي أعلي
كقطعة حديد غير لازمة.
إذا حدث ذلك
بالحب الذي احبك به؛
إذا حدث ذلك؛
فقد نقصنا حباً واحداً؛
محمول بيد غريبة؛
لن يفتح أي دار
سيكون شكلاً لا غير؛
فليبهكه الصدا
لا من الورق؛
ولا من النجوم
ولا من صيحة الطاووس؛
يأتي مثل هذا التنجيم

البطاقة



قصه: من الله الطاهر من الله
كان موقنا عندما خرجوا من ذلك البيت!!
كان موقنا ان الجحيم قد يكون عالقا في اي شيء في خضجات امرأة يهزها الصراع
في قارعة الطريق..في الظلم..في الهوية.. في الحليب!!
كان موقنا ان الجحيم مربوط في جلباب الخطيئة.
رجل مجروح في عربة.. في صندوق العربة.. والعربة تجري باقصى سرعتها.. يطاردها ملك الموت... والسائق مهموم.
أرتج الصندوق..أرتج الجرح أرتج الجسد.. وأرتجت في داخله الغيبوبة..
السائق لا تتسوق علي يده الأشياء معاً.
في أذنية ظنين الجرح.. وعطن الخوف.. ولهفة للحاق..في أذنيه يبد جرح الرجل الممد في صندوق العربة..وحققاً اختلط سواد الليل برائحة الجلباب الدامي.
في ذروة التوجس والرهبة اعتقد انه ربما لا يفهم الحقيقة!!...لم يكن أصل علته في العلاقة بالرجل ولكن في صلة قرباه بالجرح هل سيموت الرجل؟؟ هل سيموت الجرح؟؟
رباه لماذا لا تتسوق الاشياء معاً! وفي تقاطع الطريق أوقفه الجنود للتفتيش!!!
توقف!
...فتوقف
...ترجل!
...فترجل
والتف حوله الجنود كل يحمل -
بندقية... وقف يتأمل في وجوههم وهم يدورون حول العربة يفتشون إبطاتها.. وحجرتها..وينظرون تحتها بالمصابيح اليدوية!!!
تأمل وجوههم.. وتأمل بناذقهم وكاد أن تعثره الدهشة الي ان صاح في وجهه الجندي
- بطاقتك الشخصية!!
- عفوا هل تقصد...!!
- الاتفهم لغتي!!.. أريد بطاقتك الشخصية!
- أه حسناً..حسناً..اتيك بها.
وركض الي صندوق العربة وبكلتي يديه راح يجرجر الجسد من داخله حتى القاه علي الأرض
ثم التفت إلي الجندي قائلاً- وهو بنفض يديه من بقايا التراب الدامي-
تفضل سيدي.. جاهزة
للتفتيش!!!
دار الجندي حول الجسد وفتش الإختام في بطنه والإمضاءات في فخذه.. وراجع تاريخ الاصدار في مكانه المعروف!!
ثم رفع رأسه للسائق
-حسناً.. هذه بطاقة جيدة والان أريد بطاقة من معك..
رفع السائق حاجبيه دهشه ورد في عبارة اكملها بالإشارة
: هو ذا من معي...سله!
فدار الجندي حول الجسد تماماً كما دار الوحش حول فريسته... اما الغيبوبة فقد حسم امرها الجسد ومؤخرة البندقية.. واما البندقية فقد انتفض مذعوراً.. يحدق في الجنود. وفي دهشة غريبة نظر إلي السائق يساله مرعوباً
: لا تندبو منزجاً هكذا...هذه نقطة تفتيش عابرة..اره بطاقتك حتى نواصل سيرنا!
اخالك تموت من النزيف

عندما صرخ الجندي في وجه السائق
: اريد بطاقة شخصية؟
: وماذا تريد ايضا؟
: نفذ صبري معك ارني بطاقتك الشخصية!
قالها وهو ينقل البندقية من كتفه الي يديه..لحظتها وقف الرجل ورفع جلبابه الخارجي ثم جلبابه الداخلي وبسط جرحه للجندي.
: هذه هي البطاقة.. افعل بها ماتشاء ولكن اسرع ان نحن في عجلة من امرنا.
تقرس الجندي في الجرح الغائر في جسد الرجل..تفحصه بيده...باعد شفطية...واضاء فيه المصباح يمينا ويساراً.. ثم خطى خطواتين للوراء وقال للرجل:-
- هذه بطاقة قديمة وغير سارية المفعول!! فبحلق فيه الرجل دهشة وقال

المفعول!!
- لاكثر الحديث معي.. اريد بطاقة سارية المفعول!.. هل تفهم..ثم عاد الي البوت ومؤخرة البندقية.. وانها علي الرجل مهموما بتنهشيم عجيزته هيا..هيا...
وفر الرجل.. ركض قابضا علي جرحه وأختفي في الظلمة.. بعد ليالٍ والسائق في حضرة الجنود ينتظر، غطت صفحة السماء سحابه ضخمة من الأصوات، والغبار...وازدهم الأفق بالجحيم...واشتعلت حوافة بالدخان والهتاف فانفض السائق واقفا وقال للجندي في سخرية وهو ينفذ عن مؤخرته التراب :- نعم..
لقد عرفت أن صديقي سوف لن يعود بلابطاقة!

عندما صرخ الجندي في وجه السائق
: اريد بطاقة شخصية؟
: وماذا تريد ايضا؟
: نفذ صبري معك ارني بطاقتك الشخصية!
قالها وهو ينقل البندقية من كتفه الي يديه..لحظتها وقف الرجل ورفع جلبابه الخارجي ثم جلبابه الداخلي وبسط جرحه للجندي.
: هذه هي البطاقة.. افعل بها ماتشاء ولكن اسرع ان نحن في عجلة من امرنا.
تقرس الجندي في الجرح الغائر في جسد الرجل..تفحصه بيده...باعد شفطية...واضاء فيه المصباح يمينا ويساراً.. ثم خطى خطواتين للوراء وقال للرجل:-
- هذه بطاقة قديمة وغير سارية المفعول!! فبحلق فيه الرجل دهشة وقال

عندما صرخ الجندي في وجه السائق
: اريد بطاقة شخصية؟
: وماذا تريد ايضا؟
: نفذ صبري معك ارني بطاقتك الشخصية!
قالها وهو ينقل البندقية من كتفه الي يديه..لحظتها وقف الرجل ورفع جلبابه الخارجي ثم جلبابه الداخلي وبسط جرحه للجندي.
: هذه هي البطاقة.. افعل بها ماتشاء ولكن اسرع ان نحن في عجلة من امرنا.
تقرس الجندي في الجرح الغائر في جسد الرجل..تفحصه بيده...باعد شفطية...واضاء فيه المصباح يمينا ويساراً.. ثم خطى خطواتين للوراء وقال للرجل:-
- هذه بطاقة قديمة وغير سارية المفعول!! فبحلق فيه الرجل دهشة وقال